مأزق العلمانيين العرب

هو يدخن السيجار ويقضي معظم ليله في البار، لكنه يذهب إلى النادي أحيانًا ليمارس رياضة الجولف، معجب جدًّا بوجودية سارتر، وبقصة حبه الشهيرة مع سيمون دي بوفوار، يتخذ من تمرد رامبو ووقاحته نموذجًا للتعامل مع الواقع، لكن مثله الأعلى هو بطل فيلم الأيدي الناعمة، رشح نفسه في انتخابات مجلس الشعب، وأثناء قيادته لسيارته الفارهة استوقفه أحد أبناء دائرته قائلاً: لا أجد طبق الفول يا بيه، فنظر إليه شذرًا وقال ماذا تعني بكلمة فول؟ هذه هي صورة العلماني في المخيلة العربية، وفي الوعي الجمعي العربي.

إن مأزق العلمانيين العرب هو مأزق بطل قصتنا هذه، فهم يعيشون في عالمهم الخاص وفي واقع افتراضي لا وجود له خارج الذهن، ويعتقدون أن مشاكلهم هي مشاكل الأمة، وطموحهم هو طموح الأمة، كما أنهم فشلوا في بناء علاقة دافئة بينهم وبين عموم الشعب، فقدموا العلمانية على أنها حلول لمشاكل النخبة، والخطاب العلماني خطاب ضيق الأفق، يصل إلى درجة التطرف، والحرية هي الكلمة الأكثر بروزًا في المفردات العلمانية. وليتها كانت الحرية بمفهومها الواسع والشامل، لكنها حرية انتقائية، تجاهلت الحرية السياسية، وركزت على حرية الممارسة الجنسية وحرية الفكر وحرية المرأة،

وهذه مشاكل نخبوية تتعالى على هرم الحاجات الإنسانية بمستوياتها الشائعة، فهناك نموذج شائع لأولويات الحاجات الإنسانية يسمى هرم مالسو وقد حظي بشهرة كبيرة، المستوى الأول الأكثر ضرورية والأكثر شمولية للبشر يبدأ من قاعدة الهرم، وهو يمثل الحاجة البيولوجية من طعام وشراب، والمستوى الثاني الحاجة للأمن، وهذا يتوافق مع التصنيف القرآني، قال تعالى: (الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [قريش: ٤].

ثم يأتي المستوى الثالث، وهو الحاجة للحب والصداقة والانتماء لجماعة ما، وفي المستوى الرابع تبرز الحاجة للمعنوي والذاتي من احترام وتقدير، وفي الخامس الطموحات الشخصية وتحقيق الذات، لكن الراصد للخطاب العلماني يجد أنه خطاب مقلوب، فبدايتهم من قمة الهرم وهو المستوى الذي يمثل الجانب الترفيهي والنخبوي، وهو نتاج تاريخ طويل من الأفكار والفلسفات النفعية، في الوقت الذي يهملون فيه المشاكل الأساسية للجماهير، ولهذا فإن هذه الجماهير لا تشعر بهم. هناك انقطاع وقطيعة وجدانية متبادلة بين الطرفين، فالعلمانيون لا يشعرون بقلق الهوية الذي هو هاجس شعبي، فالهوية لا تعنيهم، ولكن الذي يعنيهم هو تحقيق أكبر قدر من اللذة، فصار الخطاب العلماني متحررًا من الخلفية الثقافية والوجدانية للأمة، ومن البديهي أن شكل النظام السياسي للدولة ما هو إلا ترجمة لأفكار المجتمع، لكنهم يستعيرون شكلاً لأفكار غيرنا.

العلماني يبدأ من قطيعة معرفية مع ماضيه epistemological break ولا يحاول أن يستفيد منه أو يتحاور معه، وإذا كان ماضي هذه الأمة قد تم تشكيله وصهره في بوتقة الدين، فالعلماني بالغريزة يشعر بعداء تلقائي تجاه كل من الماضي والدين على السواء.

ومع هذا فالعلمانيون لم يأتوا بجديد، فغاية ما فعلوه أنهم وضعوا الخمر القديمة في زجاجات جديدة. إن تجاهل سؤال الهوية، والتشبث بالفكرة العلمانية دون استلهام للواقع المغاير؛ تعني التعامل مع الأمور بطريقة معكوسة، فالعلمانية ليست فرضًا، بل هي اختيار، وطريقة الإملائات لم تعد تجدي مع شعب صنع واحدة من أعظم الثورات، والإصرار على هذه الطريقة سوف يعطل مشروع النهضة، لأنه لا يعني سوى وضع العربة أمام الحصان.

Putting the carriage before the horse